مراجعات

تقديم كتاب:
أسلافنا العرب، ما تدين به الفرنسية للعربية
تأليف: جون بريفو
مطابع جون - كلود لاتيس، باريس387[1] صفحة،
الطبعة الأولى، 2017

أ. د. محمّد الصّحبي البعزاوي
جامعة الوصل – دبي

Prof. Mohamed Sahbi Baazaoui
Alwasl University - Dubai

https://doi.org/10.47798/fom.2025.i05.09

1- Pruvost (Jean), Nos Ancêtres les arabes, ce que le français doit à la langue arabe; éd. Lattès. Paris, 2017.

تمهيد

يندرج كتاب «أسلافنا العرب، ما تدين به الفرنسية للعربية» (Nos Ancêtres les arabes, ce que le français doit à la langue arabe) ضمن حقل اللسانيات التاريخية والمعجمية المقارن. وهو يمثل في جوهره، مساءلة علمية لافتة في إعادة قراءة السردية التقليدية لتاريخ اللغة الفرنسية من خلال تسليط الضّوء على أثر اللغة العربية والحضارة العربية الإسلامية في تشكيل معجم اللغة الفرنسية. والكتاب بما حواه من معطيات ومعارف وأراء لم يكن موجّها إلى قارئ بعينه، بل هو ثمرة قراءة لتاريخ اللغة الفرنسية وجهد معمّق يمكن أن يستفيد منه الباحث المتخصّص وغير المتخصّص في المباحث اللّسانية – المعجمية وفي غيرها من المباحث. وقد صاغه صاحبه بأسلوب يجمع بين الصرامة العلمية ودقة الاستدلال ووضوح الصّياغة.

ولعلّل ما يميّز هذا المصنّف، جرأة صاحبه العلمية ودقّة استدلاله على عناصر تمسُّ الهوية اللّغوية والثقافية الفرنسية. فقد أعاد النّظر في مقولة «أسلافنا الغال» (Nos ancêtres les gauloises) وبيّن في مختلف فصول الكتاب أنّها معطى اختزالي لا يعبّر عن تاريخ اللغة الفرنسية ولا يعكس حقيقة الاتصال اللغوي الذي قامت عليه.

1- إشكالية الكتاب وأبعاده النّظرية

يدور الكتاب على إشكالية محورية يمكن صياغتها على النحو الموالي:

- إلى أيّ حدّ أسهمت اللغة العربية في تكوين معجم اللغة الفرنسية؟
- ما هو أثر هذا الإسهام في تبيّن مظاهر الاتّصال بين الجماعات اللّغوية الناطقة بالعربية والجماعات الناطقة بالفرنسية.

يعالج جون بريفو هذه الإشكالية انطلاقا من فرضية أساسية مفادها أنّ اللّغة ليست كيانا مغلقا مستقلا عن كل مظاهر التأثّر والتأثير، بل هي نتاج تاريخ ممتد من الاحتكاك والتفاعل والتبادل الذي يختزله الاتصال اللغوي والاقتراض بمظهريه اللّغوي والثقافي وغيرهما من مظاهر الاتصال الحضاري. ومن هذا المنظور فإنّ العربية في علاقتها بالفرنسية لم تكن في هذا المصنّف مجرّد لغة مُقرضة لعدد من الألفاظ العامة أو المصطلحات العلمية والتقنية، بل هي مكوّن من مكوّنات الذّاكرة اللّغوية الفرنسية. وقد برّر المؤلّف غياب هذا المعطى بأبعاده اللغوية والتاريخية والحضارية في جزء كبير منه، إلى اعتبارات إيديولوجية

وثقافية لا إلى انعدام الأدلّة اللّغوية. ولذلك فإنّ الكتاب يمثّل في جوهره، نواة مشروع معرفي يتجاوز الأبعاد اللّسانية في اتجاه تصويب معطى تاريخي وإعادة تقديمه على النّحو الذي ينبغي أن يكون عليه.

2- منهج الكتاب

يعتمد جون بريفو منهجا تاريخيا مقارنا يقوم على:

- التأصيل الاشتقاقي للمفردات الفرنسية من أصول عربية، وتتبّع مسارها الصوتي والدّلالي.
- التحقيق المعجمي بالعودة إلى المعاجم اللغوية التاريخية الفرنسية والعربية.
- تبرير انتقال المفردات من العربية إلى الفرنسية تاريخيا بالأخذ في الحسبان تواجد العرب في الأندلس والتجارة في حوض البحر الأبيض المتوسط وحركة الترجمة والتركيز على العلوم العربية في العصور الوسطى.
- تصنيف المفردات/ الألفاظ بحسب المجالات والتمييز بين المفردات العامّة والمصطلحات العلمية والتقنية. وقد اهتم في هذا الباب بعديد المجالات من قبيل مجالات العلوم والفنون والتقنية ومجالات الغذاء والتجارة واللباس والمفردات المتّصلة بالحياة اليومية.

ولعلّ أهمّ ما يميّز هذا المنهج الجمع بين التأصيل التاريخي وتبرير اندماج المفردات العربية في اللغة الفرنسية.

3- بنية الكتاب ومضامينه

3-1 يتوزّع الكتاب على فصول مترابطة تعالج الإشكالية من زوايا مختلفة، من أبرزها

- نقد السردية اللغوية التقليدية التي تردّ أصول اللغة الفرنسية إلى الغالية واللاتينية دون العربية.
- عرض مدوّنة من المفردات الفرنسية من أصل عربي في إطار الاستدلال على دور اللغة العربية في تاريخ معجم اللغة الفرنسية.
- التعمّق في مظاهر الاتصال بين العربية والفرنسية والتركيز على أهميّة تواجد العرب

في الأندلس في تحقيق اتصال اللغتين، أو عن طريق التجارة المتوسطية أو عن طريق علوم العربية المترجمة إلى اللاتينية...

- إبراز حضور اللغة العربية في اللغة اليومية الفرنسية لا في المصطلحات العلمية والتقنية فحسب، وهو ما يؤكّد على مدى عمق التأثير اللغوي والحضاري العربي في الفرنسية.

2-3 فصول الكتاب

3-2-1 الفصل الأول مدخل إلى تاريخ اللغة الفرنسية وتأثير الحضارات الأخرى (Nos ancêtres...mais encore)، يقدّم جون بريفو في الفصل الأوّل إطارا نظريا حول نشأة اللغة الفرنسية، مركّزا على النّظريات التقليدية التي تذهب إلى نسبتها إلى اللاتينية والغالية فقط لا غير. ويعرض في الأثناء مقدّمة حول أهميّة دراسة التأثيرات الأجنبية على المعجم الفرنسي مركّزا الاهتمام على التبادل الثقافي مع الحضارة العربية خلال العصور الوسطى وخاصة في مجال العلوم والفنون والتجارة. ويتّجه الكاتب من خلال الفصل التمهيدي الأوّل إلى وضع القارئ في السياق التاريخي والمعرفي الذي يوضّح لاحقا كيفية دخول المفردات العربية إلى معجم اللغة الفرنسية سواء كانت مفردات عامّة أو مصطلحات.

3-2-2 الفصل الثاني مظاهر الاتصال اللغوي بين العربية والفرنسية (القنوات التاريخية لانتقال المفردات العربية إلى معجم اللغة الفرنسية). وقد ركّز الكاتب في هذا الفصل على أهمّ القنوات المساهمة في رأيه في الاتصال اللّغوي ومنها حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية في العصور الوسطى خصوصا عبر الأندلس بالإضافة إلى التجارة المتوسطية والاحتكاك الجغرافي بين المدن الساحلية العربية والأوروبية، فضلا عن الدّور التعليمي والعلمي للمراكز العربية في نقل العلوم إلى أوروبا.

3-2-3 الفصل الثالث، تصنيف المفردات العربية في المعجم الفرنسي باعتماد الترتيب الأبجدي، حاول المؤلّف في هذا الفصل تنظيم المفردات الفرنسية من أصول عربية باعتماد الحروف الأبجدية. وقد قدّم في هذا الفصل قائمة مطوّلة من المفردات المألوفة في المعجم الفرنسي والتذكير بأصلها العربي منطلقا من مفردات alcool وalgè-bre وصولا إلى مفردات من قبيل café وmosquée، مع تبرير مظاهر انتقال تلك المفردات إلى معجم اللغة الفرنسية.

3-2-4 الفصل الرابع، مسار المفردات العربية (Les chemins des mots arabes) وهذا الفصل كما يدل على ذلك عنوانه يرصد فيه صاحبه كيفية دخول المفردات العربية إلى معجم اللغة الفرنسية مركّزا على أهمّ مظاهر الاتصال بين اللّغتين بما في ذلك المناطق الأندلسية التي شهدت انتشارا واسعا للغة والثقافة العربيتين إبان العصور الوسطى، والتبادل التجاري عبر البحر الأبيض المتوسط بين دول الشمال ودول الجنوب. وقد قويت مظاهر الاتصال في العصور اللاحقة عبر الاستعمار والتبادل الثقافي. وقد كان الفصل مناسبة لمناقشة العوامل التاريخية والاجتماعية التي أدّت إلى استعمال مفردات اللغة العربية في الحياة اليومية للناطقين بالفرنسية وفي معجم اللغة الفرنسية على وجه التحديد.

3-2-5 الفصل الخامس، وقد جعله بعنوان: رحلة موضوعية في اللغة الفرنسية عبر المفردات ذات الأصل العربي (Voyage thématique en français via les mots d'origine arabe)، ويمكن اعتبار هذا الفصل فصلا تصنيفيا اهتمّ فيه المؤلّف بالمفردات الفرنسية من أصل عربي بحسب مجالاتها أو أصنافها المعجمية مستدلا على تأثير العربية في حياة الفرنسي العامّة في مختلف المجالات. وقد ذكر من خلال هذا التصنيف مجالات عديدة من قبيل المأكل والملبس والعلوم والأقمشة والحيوان والفنّ والموسيقى...وهو ما يساهم في توجيه المصنّف وجهة تاريخية ثقافية اجتماعية تبدأ من المعجم ومن البحث في تاريخ المفردات إلى التعمّق في تاريخ الثقافة وفي مظاهر الاتصال المتعدّدة بين الجماعات الناطقة بالعربية والجماعات الناطقة بالفرنسية.

3-5-6 الفصل السادس، لغة في حركية متواصلة من سان دوني إلى الراب (Une langue en mouvement: de Saint- Denis au rap)، يهدف الفصل إلى الإقرار بأهميّة التأثير العربي في مختلف المجالات الحيوية اليومية بالنسبة إلى الجماعات الناطقة بالفرنسية ويؤكّد على تواصل هذا التأثير من خلال الموسيقى ولغة الشباب المتجدّدة، وهو مظهر من مظاهر حياة اللغات واستمرارها.

3-5-7 مسارات اللغتين الفرنسية والعربية، مسارات متشابهة (Langue fran-çaise et arabe: les mêmes trajectoires)، يعرض المؤلف من خلال الفصل الأخير رؤية متكاملة عن صلة الفرنسية بالعربية مبرزا مظاهر التداخل بينهما متجاوزا الاتصال اللّغوي إلى التشديد على مظاهر الاتصال الحضاري بين جماعات متفاعلة تاريخيا وثقافيا. فالكتاب بهذا الاعتبار لم يعد مجرّد قاموس للمفردات الفرنسية من أصول عربية فقط بل هو مسار أرّخ من خلاله صاحبه إلى تأثير الحضارة العربية في اللغة والمجتمع الفرنسيين

من العصور الوسطى إلى العصر الحديث منسجما مع أطروحته التي تأتي في سياق تنسيب المقولة التي تُرجع الفرنسية إلى أصول غالية.

4- القيمة العلمية والثقافية للكتاب

يمكن أن نوجز أهمّ مزايا الكتاب في سياق تقريبه للقارئ في مستويات عديدة، لعلّ أهمّها ما يعرضه من معطيات لسانية يمكنها أن تُسهم في تطوير الدراسات المعجمية عموما وأن تحمل الباحث على إعادة النّظر في مظاهر الاقتراض اللغوي والاقتراض الثقافي بين العربية والفرنسية بالتعمّق في دراسة المفردات الفرنسية من أصول عربية. أمّا من الناحية التاريخية، فإنّ الكتاب يُعيد الاعتبار لما لعبته الحضارة العربية من دور في تشكيل أوروبا الحديثة. فالكتاب بهذا الاعتبار يساهم في فتح آفاق البحث اللّساني وفي تعديل الرؤى والمواقف من الحضارة العربية في علاقة بالتاريخ الثقافي والفكر الحضاري عموما.

5- على سبيل الخاتمة

رغم ميل المؤلّف في الكتاب إلى توسيع دائرة التأثيل العربي للمفردات وغلبة الطابع التفسيري على التحليل الإحصائي الكمّي الذي يساعد على مزيد الاستدلال على وجاهة الفرضيات التي بنى على أساسها موضوعات الكتاب، فإن مصنّف «أسلافنا العرب» يبرز أهمية المقاربة اللسانية التاريخية في تفكيك السرديات الاختزالية لتاريخ اللغات، ويؤكّد على أن اللغة الفرنسية بوصفها نظاما حيا، قد تشكّلت عبر مسار طويل من التفاعل الحضاري والتبادل الثقافي والاتصال اللغوي. وقد قدّم المؤلّف من خلال تتبّعه لمدوّنة معتبرة من المفردات الفرنسية من أصول عربية، معطيات معجمية موثّقة تسهم في توسيع أفق البحث في تاريخ اللّغة وإعادة كتابة جزء منه من منظور علمي موضوعي خال من كلّ إيديولوجيا، بعيد عن كلّ مظاهر التحيّز اللّغوي.

فليست قيمة الكتاب موصولة بالجانب التأثيلي فحسب، بل فيما يفتحه من إمكانات تأويلية لدراسة العلاقة بين اللغة والهوية، وبين المعجم والتاريخ الثقافي. إذ يتيح الكتاب إعادة التفكير في ظاهرة الاقتراض اللغوي باعتباره ظاهرة لافتة في اتّصال اللغات وتطوّرها. ورغم ما يمكن أن يُسجّل من تحفّظات منهجية في علاقة بكيفية التأصيل لبعض المفردات العربية وفي كيفية دخولها في معجم الفرنسية اللّغوي، فإنّ الكتاب يمثّل مساهمة جادّة في حقل اللّسانيات التاريخية، ومصدرا مهمّا لإثراء النّقاش الأكاديمي حول التداخل اللغوي والحضاري بين العربية واللغات الأوروبية، وتجديد أسئلة البحث في اللّغة والتاريخ والثقافة.